الفصل الحادي عشر

الوصاية (الحضانة)

بعد أن بقيت في نيويورك بضعة أيام سافرت عائدة إلى الأردن، استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن أستجمع شجاعتي أخيرًا، وأخبر عائلتي بأنني سأرفع قضية وصاية (حضانة)، لم أكن أفكر في الحصول على طلاق ولا زواج مرة ثانية، فبعد أن قضيت كل تلك السنين مع حمزة لم أرغب في الارتباط بشخص آخر، لذلك لم يكن هناك فرق بالنسبة إلي، إن كنا ما زلنا متزوجين أم لا، كان والداي وإخوتي منزعجين، عندما عرفوا أنني سأذهب إلى المحكمة.

جميع عائلتي هاجموني، قائلين: «سوف يعيدهم يا فدوى، لا عليك إلا أن تمنحيه بعض الوقت، فهو أبوهم، ونحن متأكدون من أنه يرغب في أن يتواصلوا مع أمهم».

استمعت إليهم بصمت دون أن أرد عليهم، فهم لم يفهموا الأمر. كان حمزة يرسل لي ٣٥ دينارًا شهريًّا؛ لأغطي نفقاتي أنا ونفقات طفليّ، وعلى الرغم من أنني لم أكن أدفع إيجارًا؛ لأنني أعيش في منزله، لكن كان علي أن أدفع الفواتير وتكاليف الطعام والمواصلات وتكاليف أخرى، مثل فواتير الأطباء في حال مرض طفليّ؛ لذلك كنت أحتاج إلى أكثر من ذلك المبلغ بكثير.

لم يكن لدي المال الكافي؛ لذلك قررت أن أذهب إلى المحكمة، وأقدم الأوراق بنفسي، فأخذت روان وعبدالرحمن معي إلى محكمة الاستئناف الشرعية في منطقة جبل الحسين في عمّان بالقرب من وزارة الأوقاف، وعندما أصبحت داخل المحكمة مشيت في ممراتها مع طفليّ، ثم رأيت شابًّا، وسألته: أين يمكنني أن أجد طلب الحصول على حجة وصاية؟

«دعيني أحضر لك نسخة من هذا الطلب».

عاد بعد خمس دقائق حاملًا بيده ثلاث ورقات.

«تفضلي يا سيدتي، يمكنك أن تجلسي في غرفة انتظار النساء، وتعبئي الأوراق، سأرجع إليك بعد نصف ساعة، هل تحبين أن أرشدك للطريق؟».

«نعم، شكرًا جزيلًا لك على المساعدة».

openkandil.com

عبأت طلب الوصاية ونفقة الزوجة، وجلست في غرفة انتظار النساء، كانت الغرفة مليئة بنساء أخريات، لدى كل واحدة منهن مشكلتها الخاصة، وكان بعضهن يعانين مشكلتي نفسها، أزواجهن أخذوا أطفالهن منهن، استمعت إليهن وهن يتحدثن عن قضايا الطلاق والوصاية ونفقة الأطفال. كان بعض هؤلاء النساء قد أمضين أكثر من عام، وهن يذهبن إلى المحكمة دون أن يتوصلن إلى أي حل.

لن يحدث هذا لي، ولن يستغرق الأمر كل هذا الوقت.

رجع الشاب، وأحضر لي طلبًا آخر.

«اتبعيني يا سيدتي، سأريك الشخص الذي يجب أن تعطيه هذا الطلب».

شعرت بالفزع، عندما قرأت ذلك الطلب، فقد كان علي كتابة مكان إقامة زوجي وكم من المال يجني، ربما في علاقات زوجية أخرى يكون الأزواج أكثر انفتاحًا حول هذه الأشياء، أما أنا فلم تكن لدي أدنى فكرة، ولا يمكنني الوصول إلى أي وثائق تحتوي على هذه المعلومات.

«انتظر يا سيدي! كيف يفترض فيّ أن أعرف كل تلك الأشياء؟».

لم يكن لدي مال لأعين محاميًا، لكن هز موظف آخر رأسه، قائلًا:

«لستِ في حاجة إلى محامٍ ما عليك إلا أن تعبئي الأوراق، سوف يستغرق الأمر وقتًا، لذلك عليكِ أن تصبري».

شكرته، وأخذت الطلب، وأسرعت للمنزل أنقب عن الأوراق الموجودة عندي، وأخيرًا وجدت ملفًّا خاصًّا بشركة أرامكو، كان راتب حمزة الأساسي في الشركة ١٠،٠٠٠ دولار شهريًّا، وكان يزداد عند إنجاب طفل جديد، لم نكن ندفع ضرائب في السعودية، وكانت شركة أرامكو تمنحنا خصمًا على الإيجار، كنت أعرف أن حمزة يملك مالًا، لكن لم أعرف أنه يملك هذا المقدار الكبير. استغرقني الأمر يومين لأجمع جميع المعلومات الضرورية لتعبئة الطلب.

وفي الصباح الباكر من اليوم المقبل ذهبت إلى المحكمة، وقدمت الطلب، ثم قام الرجل الذي يعمل في المكتب بختم الأوراق، وطلب مني أن أدفع ثلاثة دنانير، فأعطيته هذا المبلغ، وأعطاني إيصالًا.

«لو سمحت أنا لم آتِ في حياتي إلى محكمة، كيف سيتمكن القاضي من الاتصال بي؟ هل سيتصل أحد بي، أو يرسل لي رسالة عندما تحل القضية؟».

«لا، يا سيدتي. هل ترين التاريخ على الإيصال الذي أعطيتك إياه؟ عدّي من هذا التاريخ ولغاية ثلاثة أشهر من الآن، ثم اكتبي ذلك التاريخ حتى تتذكريه».

شكرته على مساعدته، لكني كنت بائسة قليلًا بسبب وقت الانتظار الطويل.

«ثلاثة أشهر مدة طويلة، وأنا لم أَرَ أطفالي منذ أمد بعيد».

كان متعاطفًا معي، لكن لم تكن في يده حيلة.

«إن كنت محظوظة فسوف ترين القاضي بعد ثلاثة أشهر، فأحيانًا يتطلب الأمر مدة أطول لترتيب أول جلسة مع القاضي».

أذهلني كلامه «أول جلسة؟ لكن لماذا قد أحتاج إلى أكثر من جلسة واحدة؟ ألن يخبرني بالقرار فحسب؟».

ابتسم، قائلًا: «أرى أن هذه أول مرة تأتين فيها إلى محكمة».

«نعم، وأتمنى أن تكون آخر مرة في حياتي».

كان علي انتظار ثلاثة أشهر من العذاب حتى يصلني أي رد، وكنت أعاني توترًا شديدًا أكثر من أي وقت مضى، وأنا أفكر فيما سيحدث، لم أستطع تناول الطعام أو الاستحمام بشكل منتظم، ولم أكن أبتسم بالمرة أو أملك القوة للعب مع روان وعبدالرحمن، وعندما كانت عائلتي تسألني: ما الجديد في القضية لم أكن أخبرهم بشيء عن المعاناة التي أمرّ بها، فهم على أي حال لم يرغبوا في أن أذهب للمحكمة؛ لذلك لم أستطع أن أظهر لهم أن الأمور لم تجرِ على ما يرام، كما كنت آمل.

عندما مرت الثلاثة أشهر استطعت أخيرًا أن ألتقي القاضي، فعند الساعة ٧:٠٠ صباحًا استقللت سيارة أجرة إلى منزل ابنة خالتي منيرة، التي كانت تنتظرني أمام باب منزلها، فتركت روان وعبدالرحمن عندها، ورجعت بسرعة لسيارة الأجرة؛ لأذهب إلى المحكمة.

وعندما وصلت المحكمة دخلت مكتب الرجل الذي أخبرني بأن أرجع بعد ثلاثة أشهر، ثم أريته الإيصال الذي أعطاني إياه حينئذ.

«أتتذكرني؟ لقد أخبرتني بأن أعود بعد ثلاثة أشهر».

«نعم، نعم، تفضلي اجلسي، دعيني أذهب، وأرى إن كان القاضي غير مشغول».

«حسنًا، شكرًا لك».

رجع بعد خمس دقائق، وقالي لي:

«اذهبي يا سيدتي، إلى الغرفة رقم ثلاثة اسم القاضي عبدالله».

«شكرًا لك».

مشيت في الممر أبحث عن الغرفة رقم ثلاثة، وأخيرًا وجدتها، قرعت الباب، كانت الغرفة متوسطة الحجم فيها ثلاثة كراسي بالضبط: واحد لكل شخص يحضر الجلسة، كان القاضي يجلس وراء طاولة عليها ملف وبعض الأقلام والأوراق، وكان يرتدي قبعة بيضاء طويلة وثوبًا أسود، وبالقرب منه كان يجلس رجل متوسط العمر يعمل على طباعة كل ما يملى عليه القاضي.

«السلام عليكم أيها القاضي».

«وعليكم السلام. ما قضيتك؟».

شرحت له أن زوجي تزوج امرأة ثانية، وفرّ مع أطفالي، لا أريد الطلاق، فكل ما أردته هو أن أسترجع أطفالي جميعهم، أجبته عن أسئلة شخصية كثيرة، فأخبرته بأنني حاصلة على درجة في العلوم الإسلامية واللغة العربية، وأن ابنتي عمرها تسع سنوات، ولا أعرف لماذا أخذها، وتركها عند جديها في فلسطين.

«حسنًا، شكرًا على هذه المعلومات، تحتاج المحكمة إلى وقت طويل للسير في قضيتك، وسيتطلب الأمر زيارات عدة؛ لذلك أنصحك بأن تعيني محاميًا؛ لأنه من الأسهل عليك أن تأتي فقط عندما نطلبك».

لم أعين محاميًا؛ لأني لم أقدر على تحمل تكاليفه.

«لكن سيكون الأمر أسهل بكثير إن عينت محاميًا، فذلك سيستغرق بعض الوقت؛ لأن أطفالك ليسوا هنا، وعلينا الاتصال بزوجك ليحضرهم إلى الأردن».

obeikandl.com

وعندما عدت للمنزل بعد أن أخذت طفليّ اتصلت بصديقتي صوفيا في السعودية، التي كان لها أخت محامية، فربما يمكنها أن تعطيني بعض النصائح.كانت صوفيا مدهوشَةً لسماع صوتي، لكن كما اتضح لم تكن أختها محامية للقضايا العائلية.

«لكن يمكنني أن أعطيك رقم هاتفها، فربما ستساعدك في العثور على محامٍ أسري».

اتصلت بأخت صوفيا، ودعتني لأن ألتقيها في منزل والدتها، فهي لم تكن متزوجة في ذلك الحين، وكانت لا تزال تعيش مع والدتها، وهكذا التقيت أخت صوفيا وأمها، اللتين كانتا تبدوان متعاطفتين معي، لكنهما عبرتا عن أسفهما؛ لأنهما لا تستطيعان مساعدتي.

أخبرتني أخت صوفيا، قائلة: «أشعر بالأسف يا فدوى، لكل ما حدث معك، لكن أطفالك سيكبرون يومًا ما، ويحبونك».

أخبرتني عن صديقة لها أخذ زوجها أطفالها عندما كانوا صغارًا، ولم تَرَهم سنوات عدة، حتى إنها أبعدت عنهم طوال مرحلة طفولتهم تقريبًا، لكن في أحد الأيام، عندما كبروا طرقوا باب منزلها، فقد أرادوا أن يعرفوا أمهم، ويعتنوا بها.

اتصلت أخت صوفيا بمحامٍ أسريّ صديق لها اسمه السيد نادر، وأخبرته عن وضعي المالي؛ حتى لا يتوقع مني أن أدفع الكثير، لم يتولَّ قضيتي مجانًا، لكنه لم يطلب الكثير، حصلت على عنوانه من أخت صوفيا، ثم ذهبت إلى وسط المدينة عمان، وبعت مجموعة من الجواهر الذهبية لأدفع له، كانت تلك مجموعة أخرى أحتفظ بها دون علم حمزة، التي كنت قد وضعتها احتياطًا مع أمي قبل أن أتزوجه.

كان مكتب السيد نادر يقع في وسط المدينة، فذهبت لمقابلته في مكتبه، ثم أخبرني بأننا سنذهب مع بعض إلى المحكمة في صباح اليوم المقبل.

«علينا عمل نموذج وكالة».

طلب مني نسخة من عقد زواجي وشهادات الولادة لجميع أطفالي ودفتر العائلة وأجوزة السفر والهوية وأي وثائق حكومية في حوزتي، وهكذا التقيته في المحكمة، وأنا أحمل ملفًّا يحتوي على جميع الوثائق التي طلبها، لم يأخذ مني إلا ثمن وقود السيارة ليوصلني إلى المحكمة ورسوم طلبات المحكمة والوكالة وأيضًا تكاليف المكالمات الهاتفية في البداية.

«هذا كل شيء يا فدوى، سوف أتابع قضيتك، وإن كان لدي أي استفسارات فسأتصل بك».

«أأحتاج إلى أن آتي إلى المحكمة يا سيد نادر؟».

نص الوكالة:

وزارة العدل

(مكتب كاتب عدل)

سلطة التوكيل

أنا: الموقعة إمضاء بذ له:.....

قد وكلت وأقمت مقام نفسي المحامي..... / لينوب، ويقوم عني بتقديم وإقامة الدعاوى والمرافعة والمدافعة والمخاصمة في الدعاوى الشرعية، ومنها إقامة دعوى التفريق للخلع المتكونة أو التي ستتكون بيني وبين.....

وذلك أمام المحاكم الشرعية في كل أمر أو موضوع يتعلق في دعوى التفريق للخلع وأي محكمة أخرى من محاكم المملكة الأردنية الهاشمية على اختلاف أنواعها ووظائفها ودرجاتها صلحًا وبداية واعتراضًا واستئنافًا وتمييزًا وفي مراجعة المحاكم الشرعية في سائر درجاتها وفي إقامة الدعاوى لدى المحاكم الشرعية، ومنها إقامة دعوى التفريق للخلع وفي الطلاق وفي الإبراء وفي مراجعة وعمل كل ما يلزم من تصديقات واستخراج وثائق متعلقة بالزوجية وأي ورقة يتم استخراجها من المحاكم الشرعية وفي توقيعها وبالمصادقة عليها، وما يتفرع عنها وفي الإعادة وتصحيحًا وبالادعاء بالتقابل وفي تقديم الاستدعاءات واللوائح والإنذارات، وما يلزم من المستندات وفي التبليغ والتبلغ وإقامة البينة وإظهار العجز عنها والمطالبة بالفائدة القانونية وفي القبض الحجز التحفظي وتثبيته أو فكه، وفي الدخول بصفة شخص ثالث، وفي طلب اليمين وقبولها والنكول عنها وردها، وبالصلح والإبراء، وفي طلب إجراء المحاسبة ونقل الدعوى ورد الأعضاء الاشتكاء على الحكام وبطلب الحبس والتخلية وباستئناف القرارات التي تصدر عن هذه الدوائر وفي كل ما يجوز التوكل به شرعًا وقانونًا، ذكر أم لم يذكر، ولو كان ذكره مشروطًا وكالة خاصة مفوضة لرأيه وقوله وفعله، وله أن ينيب عنه بما شاء بكل ما وكلَ به أو ببعضه وللبيان حرر.

الموكل

obeikandl.com

«لا. إذا طلب القاضي أن يتحدث معك مباشرة فسوف أعلمك».

غادرت ورجعت للمنزل وكلي أمل أن أسمع أخبارًا طيبة في أحد الأيام، حاولت أن أمنح طفليّ المسكينين روان وعبدالرحمن اهتمامًا أكبر، وأن أمضي وقتًا في اللعب معهما.

«يا أولاد، أتريدون الذهاب إلى المتنزه؟».

«نعم! نعم!».

التقطوا أحذيتهم، وأسرعوا نحو الباب، كان المتنزه يبعد ثلاثة صفوف من البيوت عن منزلنا، فمشينا إليه، واشترينا بعض أكياس رقائق البطاطا والعصير والبسكويت من متجر صغير بالقرب من المتنزه، ثم ركضت روان وعبدالرحمن ليلعبا على الأرجوحة.

نادت روان علي، قائلة: «ماما، ادفعيني على الأرجوحة».

رأيت ملامح السعادة تعود إلى وجهيّ طفليّ، عندما كانا يلعبان، ويركضان، ويتأرجحان، ويأكلان، فما زالت الحيوية تملؤهما، أما أنا فكنت مرهقة جدًّا جسميًّا ونفسيًّا، ولكن من أجلهما بقيت معهما أربع ساعات قبل أن نعود للمنزل.

وفي أحد الأيام رن هاتف المنزل، وكان السيد نادر هو المتصل.

«مرحبًا يا مدام فدوى، أحتاج إلى وثائق العمل الخاصة بزوجك، فعلينا أن نعرف كم من المال يجني».

«يمكنني أن أعمل نسخة لك من هذه الوثائق، هل تحب أن تمر على منزلي لتأخذها؟ أم هل تريدني أن أحضرها إلى مكتبك؟».

«أفضل أن تجلبيها إلى مكتبي، وإن لم أكن موجودًا فاتركيها عند سكرتيرتي».

«حسنًا يا سيد نادر، سوف أحضرها لك بعد ظهر اليوم».

بعد أن أطعمت طفليّ، وألبستهما ثيابهما أصبحت الساعة ١١:٣٠ صباحًا، فاستقللت سيارة أجرة إلى وسط المدينة، كانت هناك أزمة مرورية رهيبة، ما جعلني أتأخر ساعة كاملة في الوصول إلى مكتب السيد نادر، وهناك صعدت درجًا طويلًا، وأنا أحمل عبدالرحمن، وأساعد روان على صعود الدرج، وعندما دخلت المكتب سلمت على السكرتيرة.

obeikandi.com

«تفضلي اجلسي يا مدام فدوى».

أحضرت لي كوبًا من الماء، وسألتني إن كنت أريد شرب الشاي؟

«لا، شكرًا لك. هل السيد نادر موجود؟».

«نعم، إنه في مقابلة مع أحد العملاء».

وبعد برهة بدأت السكرتيرة تشعر بالراحة تجاهي، وأخبرتني عن حياتها الخاصة وتعليمها، وكيف وجدت هذه الوظيفة، وكيف أنها لا تزال تنتظر رجلًا لطيفًا لتتزوجه.

«لكن يا مدام فدوى، منذ أن بدأت أعمل عند محامي أسري أسمع كل يوم عن نساء أساء الرجال لهن كثيرًا، حتى اللواتي اختار لهن والداهن أزواجهن، هذا يجعلني خائفة من الزواج».

حاولت أن أفكر في شيء مفيد أقوله لها.

«لا، لا يجب عليك أن تخافي، ليس كل الرجال مثل بعض، ما عليك إلا أن تستمري على صلاتك، وتتحلي بالإيمان، فيومًا ما سيرسل لك الله رجلًا صالحًا ولطيفًا».

«إن الحديث معك يريحني يا مدام فدوى، شكرًا لك دعيني أعدّ لك بعض الشاي».

«لا، لا أرغب في تناول الشاي الآن شكرًا لك».

وعندما رأت العميل يغادر قالت لي السكرتيرة: «سأخبر السيد نادر بأنك هنا».

وبعد لحظة قالت لي: «يمكنك أن تتفضلي يا مدام فدوى».

سلم علي السيد نادر، وقال: «تفضلي اجلسي. كيف حالك يا آنسة فدوى؟» كان أحيانًا يناديني آنسة وأحيانًا مدام.

«بخير، شكرًا لك، ها هي المعلومات عن الشركة التي يعمل فيها زوجي».

بدأ يتصفحها صفحة صفحة، ويقرأ بصمت، ثم قال: «أحتاج إلى نسخة من أحد الشيكات، فهذه المعلومات لا تكفي. هل تستطيعين الاتصال بالشركة؟».

شعرت بالقلق قليلًا حول اتصالي بشركة أرامكو بنفسي، وكنت أيضًا متأكدة أنهم لن يخبروني بشيء.

«ربما من الأفضل أن تتصل بهم أنت، فعندما تخبرهم بأنك محامٍ ولديك وكالة، فربما يستمعون إليك، ويعطونك جميع المعلومات التي تحتاج إليها».

«أنا آسف، لا أستطيع فعل ذلك، فالاتصال بالسعودية مكلف».

«حسنًا، سوف أدفع ثمن ذلك، وأضيفه لأتعابك».

«سأحاول استخدام المعلومات في هذه الوثائق التي أعطيتني إياها، لكن إذا رفضها القاضي فعليك أن تتصلي أنت بالشركة، وليس أنا».

تساءلت: ما الفائدة من تعيين محامٍ إن كنت لا أزال أنفذ الكثير من الأعمال بنفسي، لكن لم تكن في يدي حيلة في تلك المرحلة إلّا أن أصبر، وأنتظره حتى يتصل بي، وبعد أن مرت مدة بدت لي كأنها سنون حصلنا أخيرًا على موعد آخر مع القاضي، فذهبنا إلى المحكمة، وتحدثنا إلى القاضي في موضوع القضية.

أخبرته بأدلة من «القرآن والسنة أنه على الأطفال أن يعيشوا مع أمهم الى حين البلوغ».

هز رأسه موافقًا، وقال: «نعم، أنا أعرف هذا، لكن إضافة إلى الشريعة الإسلامية لدينا أيضًا قوانين حكومية؛ لذلك علي أن آخذ جميع هذه الأشياء في الحسبان لأقرر أين سيعيش الأطفال».

لم أذهب في حياتي إلى محكمة، ولم أعرف شيئًا عن أي قانون باستثناء قوانين الشريعة الإسلامية.

بعد أسبوعين اتصل بي السيد نادر، وأخبرني بأن القاضي يريد أن يلتقينا مجددًا في المحكمة.

«هل تستطيعين الحضور للمحكمة غدًا عند الساعة ٨:٠٠ صباحًا؟ سوف أنتظرك في ممر المحكمة».

وافقت، وأخبرته بأنني سأراه غدًا، ثم اتصلت بابنة خالتي (منيرة) وطلبت أن أترك روان وعبدالرحمن عندها هذه المرة أيضًا، فتفهمت وضعي، وأخبرتني بأن لا مانع لديها، وفي صباح اليوم المقبل أخذت الأطفال إليها عند الساعة ٦:٣٠ صباحًا.

obeikandl.com

بحلول الساعة ٧:٤٥ صباحًا كنت في ممر المحكمة مع السيد نادر، ثم التقينا القاضي مرة أخرى.

خاطبني القاضي عبدالله، قائلًا: «أعطاني محاميك نسخة من ملفك، وألقيت نظرة على الوثائق التي جمعتها، أنت تطالبين بالحصول على حق الحضانة والنفقة، أهذا صحيح؟».

«نعم، أيها القاضي، هذا صحيح».

«حسنًا، لكننا نحتاج إلى نسخة من شيك أو كتاب من الشركة التي يعمل فيها زوجك لنعرف كم من المال يجني، فهذه الأوراق التي أعطيتني إياها لا تكفي لإثبات كم يجني».

انتظرت محاميّ ليقول شيئًا، لكنه لم يفتح فمه.

«لكن أيها القاضي، هذه الشركة تقع في السعودية، فلو كانت في الأردن لكان من السهل علي الذهاب، وطلب هذا الكتاب منهم، وماذا لو لم يعطوني هذا الكتاب؟ عندئذ لن يكون عندي أي دليل».

«في هذه الحالة عليّ رؤية الوثائق التي سيقدمها زوجك لإثبات مستوى دخله، حسنًا يا مدام فدوى، الآن وبعد أن سمعت أقوالك علينا أن ننتظر زوجك حتى يحضر الأطفال من السعودية».

رجعت للمنزل، وانتظرت سماع أخبار من محاميّ، تم إرسال قرار محكمة إلى حمزة ليعيد الأطفال إلى الأردن، وقام هو بتعيين محامٍ له، ولم نتواصل مباشرة أبدًا.

وفي أحد الأيام، وبينما كنت في منزل والديّ أصيبت أمي بالروماتزم، فطلبت مني أن أذهب إلى وسط المدينة إلى محل عطارة لأشتري بعض الأعشاب الطبية، تركت روان وعبدالرحمن عندها، وأعطتني بعض المال، فخرجت، وأوقفت سيارة أجرة، كان ذلك المحل قريبًا من مكتب السيد نادر؛ لذلك بعد أن اشتريت الأعشاب لأمي خطر ببالي أن أمرّ على المكتب، وأطمئن على سير الأمور.

لكن قبل أن أصل الى الباب الأمامي رأيت رجلًا يشبه حمزة يدخل العمارة، راقبت ذلك الرجل، محاولة أن ألقي نظرة أقرب عليه، وعندما استدار تأكدت أن ذلك الرجل هو زوجي نفسه يمشي نحو مكتب محاميّ، تساءلت متى قدِم إلى الأردن، ولماذا هو ذاهب إلى مكتب السيد نادر؟ أين يوسف وأنس؟

قـررت أن أتبعـه؛ لأعـرف مـا يخطط لـه، فصـعدت على الـدرج متجهة نحـو المكتب، اصـطدمت بحمـزة على الدرج، لكنه لم يعرفنـي؛ لأنني كنت أرتدي النقاب لم أقل شـيئًا له، وذهبت إلى مكتب السـيد نادر بعد أن غادر حمزة، سـلمت على السكرتيرة، التي كانت سعيدة جدًّا برؤيتي، ثم رفعت نقابي، وسألت إن كان السيد نادر موجودًا؟

«إنـه ليـس هنا حاليًّا، يبـدو زوجك أكبر سـنًّا منك كثيرًا يا آنسـة فدوى! وشخصـيتك مختلفـة تمامًا عن شخصـيته، فأنت أهدأ بكثيـر ولطيفة جدًّا، أما هو فعصـبي طوال الوقت، ويتكلم بصوت عالٍ، لماذا تزوجت هذا الرجل؟».

استمعت إليها، وأنا مدهوشةً من هذا التطور في الأحداث.

«لكن كيف تعرفين حمزة؟ أين رأيته؟».

«عندمـا كان في السـعودية كان محاميه يتحدث مع السـيد نادر كل يـوم، وكانا كل مرة يتكلمان بضـع سـاعات حول قضـيتك، أتـى زوجك إلى عمّان مـدة يوميـن، وكان يأتي مرتين أو ثلاثة كل يوم ليتحدث مع السـيد نادر، أأخبرك بشـيء يا آنسـة فدوى؟ سـيقوم السيد نادر بمطالبة زوجك بدفع بدل المكالمات الهاتفية التي كان يجريها، وبدل كل مرة كان يأتي لرؤيته، قال السيد نادر: إن زوجك لديه المال، فلماذا لا نجعله يدفع؟».

لم أرغب في أن أظهر غضبي؛ لأنني أردت أن أعرف أكثر عما يجري، لكن عندما اتضح أن السكرتيرة لا تعرف أي شيء آخر أخبرتها بأن عليّ المغادرة.

«أرجوك أن تخبري السيد نادر بأن يتصل بمنزل والديّ، إنه يعرف الرقم».

غـادرت المكتب، وركبت سـيارة أجـرة، وأنا أرتعش غضـبًا، لماذا يتواصـل محاميّ مع زوجي؟ لماذا لم يخبرني بأن حمزة في عمّان؟ كنت غاضبة جدًّا، لكني شعرت بالضعف التام، ولم يكن هناك أحد ألتجئ إليه، وعندما عدت للمنزل هتفت لأمي، قائلة:

«أتصدقين يا أمي، أن حمزة في عمّان منذ يومين، وأنا لا أعلم؟ كان محاميّ يعلم ذلك، لكنه لم يخبرني بشيء».

فسألتني: «أين أنس ويوسف؟».

«لا أعرف. أنا أنتظر مكالمة هاتفية من السيد نادر».

obeikandl.com

نظرت إلي بحزن، وقالت: «آخ يا فدوى، أخاف أن يكون محاميك لصًّا».

وعند الساعة ٥:٠٠ مساءً تقريبًا رنّ الهاتف.

أخبرني السيد نادر بأنه تفاوض مع محامي حمزة.

«ماذا تعني بأنك تفاوضت مع محاميه؟ لماذا لم تخبرني بأن حمزة في عمّان؟».

«أردت أن أخبرك بذلك، لكني كنت أنتظر حتى نتوصل إلى حل».

«لكنك محاميّ، وأنا عينتك لتتابع قضيتي، وليس لتراه من وراء ظهري، لقد أعطيتك وكالة، ففي نهاية الأمر القرار هو قراري، وأنا لا أرغب في أن ترى حمزة، أو أن تتحدث معه دون علمي».

«آنسة فدوى، إن كنت لا تريدين أن أظل محاميك يمكنك أن تدفعي أتعابي، وتجدي لنفسك محاميًا آخر».

ذكرني ردّه بحقيقة الأمر، فأنا لم يكن لدي المال أو الوقت للعثور على محامٍ آخر، لكني كنت غاضبة منه بسبب خداعه.

«كل ما أريده هو أن أنهي هذه القضية، وأستعيد أطفالي إن كان من الصعب عليك فعل ذلك كان يجب أن تخبرني منذ البداية».

«حسنًا، لذلك كنت أتفاوض معه، حتى أحل الأمور العالقة بينكما، أنت تدفعين القليل وزوجك يدفع الكثير. أتستطيعين الحضور إلى مكتبي غدًا عند الساعة ١١:٠٠ صباحًا؟».

عرفت أن لا جدوى من إكمال هذه المحادثة.

«حسنًا، سوف أراك غدًا».

أخبرت والديّ عن هذه المحادثة، لقد كانا يعرفان أنني أذهب إلى المحكمة، لذلك لم يكن لدي شيء أخفيه عنهما، اقترح أبي أن يذهب معي إلى مكتب السيد نادر في اليوم المقبل، كان أبي غاضبًا من حمزة بسبب ما فعله بي، وكنت خائفة أن يفقد أعصابه، ويفعل شيئًا يجلب لي مشكلات أكثر، وكان أيضًا كبيرًا في العمر، ويعاني مشكلات في التنفس.

«لا تقلق يا أبي، سوف أذهب وحدي».

obeikandl.com

في اليوم المقبل قابلت السيد نادر، وبعد حديث طويل أخبرني بأنه ستحدد آخر جلسة محكمة في ٤ آب ٢٠٠٢م، لم أكن أشعر بالراحة تجاه السيد نادر منذ البداية، لكن لم يكن لدي خيار آخر، كنت أعتقد أول الأمر أنه يمكنني الوثوق به؛ لأنه صديق أخت صديقتي، لكنه لم يكن مهتمًّا أبدًا بمساعدتي، فكل ما أراده هو المال؛ ولأن حمزة لديه المال الكافي فله تأثير أكبر في مجرى الأمور، والسيد نادر لم يبذل جهدًا بالنيابة عني؛ لأنني لم أكن قد دفعت له بعد.

بحلول تاريخ جلسة المحكمة كان قد مضى عام كامل منذ أن رأيت يوسف وأنس آخر مرة، وكانا قد حضرا إلى المحكمة، عندما ذهبت لرؤية القاضي كان قاضينا هو نفسه، لكنا جلسنا في مكتب آخر، انتظرت أن أرى أبنائي بلهفة في مكتب القاضي، الذي كان عبارة عن غرفة كبيرة لا تحوي شيئًا باستثناء طاولة وبعض الكراسي، تبع ولداي (اللذان يبلغان الآن الرابعة عشرة والثالثة عشرة من عمرهما) محامي حمزة إلى الغرفة، فجاءا إلي، وقبّلا يدي، وعانقاني، ثم ذهبا إلى مكانيهما بالقرب من محامي حمزة، وقفت أنا بالقرب من محاميّ، ثم أتى حمزة إلى الغرفة مع سارة، وانضم لمحاميه والولدين، رفعت ذراعي إليها، وقلت:

«سارة، ألا تريدين أن تعانقي أمك؟».

مشيت نحوها، لكنها كانت خائفة من أبيها والمحامي، شعرت بأنهما قالا لها شيئًا ليخيفاها؛ حتى لا تظهر محبتها لي.

كان القاضي يرتدي زي القضاة التقليدي، وهو عبارة عن ثوب أسود وقبعة بيضاء، ثم سأل يوسف وأنس مع من يريدان أن يعيشا، بعد أن حذر بقيتنا ألا نقول شيئًا؟ كنت مدهوشةً أن الأمر بهذه السهولة، فقط أن تسأل الولدين مع من يريدان أن يذهبا، ويحقق رغبتيهما، لكني عرفت أيضًا أن ذلك لن يكون سهلًا بوجود حمزة. فحمزة لم يرغب في أن يعتقد القاضي أن أطفالي يفضلون العيش معي بدلًا عنه، وكنت أعرف ما يمكنه فعله لمنع حدوث هذا.

انتظرت بشوق أن أسمعهما يقولان: إنهما يرغبان في العيش معي في الأردن. مضت ثوانٍ من الصمت القاتل، وكنت أحدق فيهما بإمعان. ثم سمعت أحدهما تلو الآخر يأخذ نفسًا عميقًا، ويقول: «أريد أن أبقى مع أبي في السعودية».

صعقت بسماع ذلك، وتحاملت على نفسي؛ حتى لا أبكي في قاعة المحكمة، ثم التفت إلي القاضي، وقال: إن سارة وروان وعبد الرحمن سيعيشون معي، فابتسمت ابتسامة واهنة،

واستمعت إليه، وهو يأمر حمزة بأن يدفع شهريًّا ١٠٠ دينار نفقة للأطفال و٥٠ دينارًا نفقة للزوجة، وصدر الحكم بأن أعيش أنا والأطفال الصغار في منزلنا في الأردن، ويجب على حمزة أن يجهز المنزل بأسرّة وبطانيات وغسالة وموقد.

بعد أن تم القضاء في القضية غادر يوسف وأنس مع أبيهما. أردت أن أمسك ذراعيهما، وأطلب منهما تفسيرًا، لكن لم أفعل شيئًا إلا مراقبتهما يرحلان. لم يخبراني إلا بعد سنتين بأن محامي حمزة تحدث إليهما على انفراد قبل أن يدخلا قاعة المحكمة، وقال لهما:

«أنتما شابان الآن، وعليكما أن تبدأا التفكير في الأمور بشكل عملي، وألا تدعا مشاعركما تسيطر عليكما، كيف تعتقدان أن أمكما ستعتني بكما، وليس لديها أي مال؟ فحتى لو وجدت طريقة لتطعمكما، فلن تستطيع إرسالكما إلى المدرسة، هل تريدان أن تصبحا غير متعلمين، ولا تستطيعا الحصول على عمل جيد عندما تكبران؟ أخبرا القاضي بأنكما تريدان العيش مع أبيكما، فهو طبيب ولديه المال الوفير ليعتني بكما، فإذا اخترتماه سوف يضمن أن تذهبا إلى الجامعة».

بعد أن صدر الحكم مشيت بصمت إلى ممر المحكمة، ثم سألت محاميّ: كم من المال لك عندي؟ فقال: «١٥٠٠ دينار».

«حسنًا، عندما يعطيني حمزة المال سوف أدفع لك».

لم يستحق أن يأخذ فلسًا واحدًا؛ لأنه لم يبحث في قانون الشريعة الإسلامية عن موضوع الوصاية على الأطفال، فحق النساء في الوصاية على أطفالهن يفوق حق الرجال، ومن حيث المبدأ فالوصاية حق لهن؛ لأنهن أكثر حنانًا ورأفة، ويعرفن جيدًا كيف يربين الأطفال الصغار، وهن أيضًا أكثر صبرًا في التعامل مع الصعوبات التي ينطوي عليها الأمر، وللأم حق أكبر في الوصاية على أطفالها، سواء أكانوا ذكورًا أم إناثًا، ما دامت لم تتزوج رجلًا آخر، وتلبي شروط الوصاية، فهذا ما يُجمع عليه العلماء، ويجب أيضًا على الأب أن يعول الأطفال وأمهم، لكن كان السيد نادر يأخذ مالًا من حمزة ومني في الوقت نفسه، ولأن حمزة كان يدفع له أكثر فقد حصل بالتأكيد على اهتمام أكبر.

غادرت المحكمة مع سارة، وحاولت أن أبدو سعيدة قدر المستطاع من أجلها، بينما كنت أتساءل بألم: لماذا لم يختر ولداي العيش معي؟ أخبرت سارة بأننا سنحتفل برجوعها للمنزل

أخيـرًا، وأخذتها إلى وسـط المدينة لتأكل بعض الحلويات، أمسـكت يـدي ولوحت بها للأمام والخلف، وهي تقفز بفرح في الشـارع. وبعد ذلك ذهبنا إلى منزل إنتصـار، وهي صـديقة لي تعرفت إليها في الرياض. كان لدى إنتصـار ابنة في عمر سـارة تقريبًا؛ لذلك أرسـلتها لتلعب معها بضع دقائق، بينما ألملم أفكاري.

«اختار ولداي أن يعيشا مع والديهما، إنني أخسرهما».

«لا تقلقي يا فدوى. سيأتي يوسف وأنس في أحد الأيام ليعيشا معك، سوف ترين لا تفقدي الأمل».

تحدثنـا بعضـ الوقـت، ثـم اتجهت أنـا وسـارة إلى البيـت، وأخذنـا في طريقنـا روان وعبدالرحمن من منزل منيرة.

وعندمـا عـاد أربعتنـا إلـى المنزل وضـعت الأطفال في غرفـة نومي، عرفـت أن حمزة سيحضـر يوسـف وأنس ليبقيا في المنزل (الـذي لا يزال يملكه) على الرغـم من أنني أعيش فيـه، فوقفـت عند مدخل الباب أنتظره، وأنا خائفة من أن يعـود، ويأخذ جميع أطفالي مني إن خرجت لحظة واحدة، وبعد قليل سمعت حمزة والولدين في الخارج، فأقفلت بسرعة باب غرفة النوم، ودفعت السرير أمامه؛ لأمنع حمزة من الدخول.

«ماما، عدنا للمنزل! ماما، أين أنت؟».

«أنا في غرفة النوم. هل أبوكما معكما؟».

«نعم».

«ماما، نريد أن نراك!».

«هل يقف أبوكما هناك معكما».

«لا، إنه ليس معنا، إنه بعيد في غرفة المعيشة».

ترددت لحظة، ودفعت السرير بعيدًا عن الباب، ثم فتحت الباب بسرعة البرق، وسحبت يوسف وأنس إلى غرفة النوم، وأغلقت الباب، ثم سحبت السرير ودفعته مرة أخرى أمام الباب بسرعة قبل أن يأتي حمزة إلى الممر، فهكذا سيتسنى لي الوقت لأقفز من النافذة أنا وأولادي،

obeikandl.com

ونهرب حتى لو كسر حمزة الباب، ودفع السرير بعيدًا. كان المنزل يتكون من طابق واحد فقط؛ لذلك لن يصاب الأولاد بأذى إن سقطوا.

«ماما، ماذا تفعلين؟».

«لا شيء. أنا فقط لا أرغب في رؤية أبيكم الآن».

ثم قفزا إلى السرير، وأخيرًا أصبح جميع أطفالي مع بضعهم على الوسادات وتحت البطانيات، أرجلهم تتدلى على جانب السرير، وعلى الرغم من أنني كنت أعلم أن هذه اللحظة لن تدوم طويلًا إلا أنني لم أستطع دفع نفسي عن الابتسامة.

بعد بضع لحظات سمعت حمزة يغادر، ربما ليرى غادة أو يتصل بمحاميه، لقد قرر أن يمكث في فندق، ويترك يوسف وأنس معي أسبوعين قبل أن يعودا إلى السعودية، لكني كنت لا أزال أتخيل أنه ينتظرني في الخارج ليخطف أولادي حالما أزيل دفاعاتي، فأرسلت أنس ليتحقق إن كان لا يزال أبوه في المنزل، ويقفل الباب الأمامي.

ناديت عليه، وهو يعدو في الممر: «تأكد من أن تقفل القفل الإضافي أيضًا».

وحالما عاد فتحت باب غرفة النوم، وأخرجت الأطفال ليسرحوا ويمرحوا في المنزل، حاولت أن أركز على سعادتي؛ لأن جميع أطفالي سيبقون عندي أسبوعين، لكني كنت لا أزال غاضبة من ولديّ، بعد أن اختارا أن يذهبا مع أبيهما.

«يوسف، أنس، لماذا لا ترغبان في العيش معي؟ ألم تعودا تحباني؟».

«لا يا أمي، لا نزال نحبك».

لم يستطيعا أن يخبراني بشيء يخفف ألمي، لذلك كتمته في صدري، أخذتهم ليروا والديّ وأخواتي وأولادهن، وتركت الأطفال يلعبون في الفناء.

وفي أحد الأيام ذهبت إلى المدرسة الابتدائية الحكومية التي تبعد صفًّا واحدًا من البيوت عن منزلنا لأسجل سارة فيها، تحدثت مع المديرة، التي استمعت إلي بأدب، بينما شرحت لها أنني أريد أن أسجل ابنتي في المدرسة، وأنها أنهت الصف الأول في السعودية والثاني في فلسطين، وأنه ليس لدي أي من سجلاتها المدرسية؛ لأن زوجي يرفض إعطاءها

لي، لكني متأكدة أن سـارة سـتبلي بلاءً حسـنًا، أومأت المديرة برأسـها إلى أن أنهيت شرحي للوضع، وقالت:

«أنا آسفة جدًّا، لكن المقاعد ممتلئة لهذا العام، فلقد أنهينا التسجيل مبكرًا، وليس لدينا أي مقاعد متاحة حتى العام المقبل».

لم أتوقع حدوث هذا، فأنا لم أكن أستطيع تحمل تكاليف إرسال سارة إلى مدرسة خاصة، ولم أرغب أيضًا في أن تبقى في المنزل، ويضعف ذكاؤها عامًا كاملًا.

«لكن ليس من الضـروري أن تسجلوها رسـميًّا، ألا يمكنها أن تجلس في الصف فحسب؟ أعـرف أنها سـتتخلف عن زميلاتها، لكن لا يهمني ذلـك إن كان عامًا واحدًا فقط. فعلى الأقل سوف تدرس، وتقوي مهاراتها».

«لا، مستحيل أن نفعل ذلك».

لم تتحدث معي أكثر من ذلك، لذلك غادرت لأسـجل روان في روضة أطفال، كان لديهم مقاعد متاحة، لكن كانت الرسـوم الشـهرية تبلغ ١٠٠ دولار تقريبًا، أي نفقة الأطفال كلها التي سيدفعها حمزة؛ لذا كنت في حاجة إلى أن أجد عملًا، لكن ماذا أستطيع أن أعمل؟

حاولت اسـتجماع أفكاري، واتصلت بسميرة لأطلب رأيها حول ما يجب عليّ فعله، فربما تستطيع أن تفكر بشكل أوضح مني.

«فدوى، لماذا لا تضعين سارة في مدرسة خاصة هذا العام؟ ربما سيدفع حمزة التكاليف إن كانت هذا العام فحسب، إنه أبوها، وأنا متأكدة أنه يرغب في أن تذهب ابنته إلى المدرسة، وبعد ذلك يمكنك أن تنقليها إلى مدرسة حكومية في العام المقبل؛ لذلك لن يقلقه دفع الرسوم الدراسية كل عام».

لم أكن متأكدة من أنه سيرضـى، لكن سـأحاول، اتصلت مسـاء أحد الأيام بحمزة على هاتفـه الجوال، وقال: إنه سـيأتي. فانتظرته، وطلبت أن أتحـدث معه في الفناء الخلفي، بينما يشاهد الأطفال التلفاز.

«أريد أن أطلب منك شـيئًا يا حمزة، ذهبت إلى المدرسـة الحكومية لأسـجل سارة لهذا العام، لكن كانت جميع المقاعد ممتلئة أيضًـا، هناك مدرسة خاصة بالقرب منا، في الحقيقة

obeikandl.com

إنها المدرسة نفسها التي ذهبت إليها أختاك حنان وأرما، هل يمكنك أن تدفع تكاليف هذا العام فقط؟ ستذهب سارة إلى المدرسة الحكومية في العام المقبل، لكني أرغب أن تنضم إلى المدرسة هذا العام؛ حتى لا يتراجع أداؤها الدراسي».

لم تتغير ملامح وجهه بالمرة، بينما كنت أتحدث.

«لا، لا أريد أن أنفق مالًا كثيرًا على المدارس، لا أهتم إن ذهبت للمدرسة أم لا، دعيها تبقى في المنزل».

«لكن يا حمزة، لا أريد أن يتراجع أداؤها الدراسي، أريدها أن تكون متعلمة».

«وماذا إن لم تكن متعلمة؟ هذا لا يهم».

أثارني كلامه، وظللت أضغط عليه، قائلة: «ماذا عن روان؟ عليها أن تنضم لروضة الأطفال، لكن سيكلف هذا ١٠٠ دولار في الشهر. ألا تستطيع المساعدة على ذلك؟ عندها يمكنني ربما أن أجد حلًّا لسارة».

«روان مجرد طفلة، وليس عليها أن تذهب إلى المدرسة».

أمسكت بذراعه، لكنه ابتعد عني، ودخل عائدًا للمنزل، بقيت في الفناء، بينما كان حمزة في الداخل مع الأطفال كانت هناك بقعة في الزاوية، حيث أستطيع رؤية واجهة المنزل، فانتظرت هناك حتى رأيته يغادر دون أن يصطحب أي طفل معه، ثم دخلت للمنزل، واتصلت بسميرة، التي بالغت كثيرًا في تقدير إحساس الأب بالواجب نحو أطفاله.

«ماذا تعنين؟ كيف أمكنه أن يرفض؟ إنه أبوهم، ويفترض أن يعولهم! فلديه المال الكافي! أعطِني رقم هاتفه سوف أتصل به، وأتحدث معه بالمنطق، فربما رفض في لحظة غضب فحسب».

كنت أعرف أن لا جدوى في الجدال مع حمزة بعد أن يتخذ قرارًا، لكني أعطيتها الرقم على أي حال، وبعد دقائق عدة اتصلت بي سميرة، وهي غاضبة أكثر من قبل.

«عقله كالحجر. قال لي: (لا أريدهما أن تتعلما، ولتبقيا في المنزل)».

تحدثت لاحقًا مع والديّ، وأخبرتهما كم أنا قلقة من أنه إن لم أرسلهما للمدرسة عامًا كاملًا، فسوف تضيعان وقتًا أطول، ولن ترجعا للمدرسة أبدًا، فكرت في الهرب معهما، لكن كيف سأعول نفسي؟ اتصلت بصديقة لي في السعودية لأرى إن كانت تستطيع إحضار سجلات

العلامات الدراسية واللقاحات الخاصة بسارة من مدرستها القديمة؟، لكن المدرسة لم توافق على إعطاء الملف إلى شخص ليس من الأقارب، كنت لا أزال غير قادرة على إيجاد عمل يناسبني، وكنت مرارًا وتكرارًا أذهب حيث تنام الطفلتان، وأرفع البطانيات عنهما قليلًا، وأقبل جبينهما.

وفي اليوم المقبل اتصلت بمحاميّ، وأخبرته عن موضوع تسجيل الفتاتين في المدرسة. ظل ساكتًا وقتًا طويلًا، ثم قال:

«أنا أعرف كم تحبين أولادك يا آنسة فدوى، وأعرف أنك كافحت كثيرًا من أجلهم. لكني أعتقد أنه حان الوقت لتفكري في إن كنت قادرة فعلًا على الاعتناء بهم، كما تريدين، ماذا لو تركت جميع الأطفال يعيشون مع أبيهم في السعودية؟ يمكننا أن نوقع اتفاقية ليحضرهم كل عام؛ ليزوروك خلال العطلة الصيفية. أنا أعرف أنك لا تريدين سماع هذا الكلام، لكنها الطريقة الوحيدة لضمان أن تتعلم ابنتاك».

شعرت بأن كل شيء كافحت من أجله إلى الآن يضيع مني، لم أستطع أن أستسلم، وأسمح لطفلتيّ بالذهاب، فماذا سأفعل حينها؟ كيف ستصبح حياتي دون أطفالي؟ ستصبح عدمًا، بدأت أفكر في أن محاميّ وحمزة ومحاميه كانوا يخططون لهذا طوال الوقت؛ لذلك لم أقبل بسرعة؛ لأني أعرف أنه لا يمكن الرجوع عن هذا القرار، فقلت له:

«دعني أفكر في الموضوع».

وفي إحدى الليالي، عندما أوشك الأسبوعان أن ينتهيا، جمعت الأطفال في غرفة المعيشة، وأخبرتهم كم أنا سعيدة؛ لأنهم كلهم عندي. رقصنا في الغرفة، وضحكنا، وغنينا، وأعددت لهم ساندويتشات جبنة وبطاطس مقلية، وسمحت لهم بالبقاء مستيقظين حتى منتصف الليل، حتى عبدالرحمن الصغير، وبينما كانوا يلعبون أخرجت بهدوء كاميرا الفيديو، وصورتهم حتى أتمكن من مشاهدتهم لاحقًا وهم يتنفسون، ويركضون، ويصيحون بسعادة. تحركت تحركًا إستراتيجيًّا حول الغرفة؛ لألتقط كل أصواتهم وتصرفاتهم؛ حتى لا أنسى.

وعند منتصف الليل أخبرتهم أخيرًا بأنه حان الوقت لينام، ووضعت خمستهم في سرير كبير في غرفة النوم الرئيسة، أما أنا فلم أستطع النوم، لذلك جلست على الكرسي، وأنا أحتضن ركبتيّ إلى صدري، وأتفرج على الأطفال وهم مجتمعون، حاولت أن أتذكر مظهرهم

فـي تلـك اللحظة، أعينهم مغلقة، إبهـام عبود في فمه، وجنتا روان هادئتـان وناعمتان، جبين أنس مجعد، وذراع يوسـف حول أخيه الصـغير. أما سـارة فلم أصـدق أنها فعـلًا هنا أمامي، وليسـت حلمًا، لقد بذلت كل جهدي حتى أرجعها للمنزل، والآن وبعد أسـبوعين علي أن أعطي جميـع الأطفـال لحمـزة مرة أخرى. لكن لم يكن لـدي خيار آخر، فلم يكن لـدي مال أو فرص للحصول على عمل، ولم أستطع أن أترك أطفالي يكبرون دون أن يذهبوا إلى المدرسة، فكيف أكون سعيدة، وأنا أعرف أنني أمنعهم من الحصول على فرص في الحياة عندما يكبرون.

جلسـت على الكرسي حتى السـاعة ٥:٠٠ صـباحًا، ثم ذهبت إلى الحمّام، وتوضأت. ثم صليت، وأيقظت يوسف وأنس وسارة ليصلوا أيضًا، وبعد أن أنهوا صلاتهم رجعوا إلى أَسِرّتهم، وناموا فورًا. انتظرت حتى أصبحت الساعة ٨:٠٠ صباحًا، واتصلت بمحاميّ.

«فكرت في الموضوع، وأريدك أن تكتب الورقة».

أخبرني بأنه سيتصـل بمحامي حمزة أولًا ليحصل على اتفاق شفوي، ثم يعاود الاتصال بي ليعلمني بقرار حمزة، تركت الهاتف يرن مرات عدة قبل أن أرفع السـماعة حتى أطيل وقت بقـاء أطفالي عندي، وفي النهايـة رددت على الهاتف، وأخبرني محامـيّ بأن حمزة وافق على الشروط التي وضعناها، وسنلتقي لاحقًا لمناقشة التفاصيل.

وفـي اليوم المقبل تركت جميـع أطفالي في المنزل، وذهبت لألتقـي محاميّ في منطقة جبل الحسـين في عمّان، ثم مشـينا إلى مكتـب محامي حمزة، كان حمزة يجلس بصـمت في المكتب لم أقل له شيئًا، فلم يتبقَّ شيء لأقوله، استمع حمزة، وأومأ برأسه، ثم وقع الورقة التي ذكر فيها أنه سيجلب الأطفال ليمكثوا عندي مدة شهر كل صيف، وإلا فسيدفع غرامة مقدارها ١٠،٠٠٠ دينـار. وذكر فيها أيضًـا أنه لن يدفـع المئة دينار نفقة الأطفال، بل فقط الخمسـين دينارًا نفقة شـهرية للزوجة، ثم سـألني كلا المحاميين إن كنت قد فهمت الاتفاقية أو لدي أي شيء أضيفه؟

أجبت: «نعم»، ثم «لا».

وهذا كل ما حصـل، بعد ذلك رجعت إلى المنزل، وأمضيت اليومين المتبقيين من عطلة أطفالي بأخذهم لرؤية جديهم وأخوالهم وخالاتهم وأولادهم. دهشـت أمي عندما سـمعت بما حصل، وكانت ردّة فعل أبي عملية أكثر.

«ماذا ستفعلين الآن يا فدوى؟ هل ستبقين وحدك في ذلك المنزل الكبير؟».

«لا أعرف. سوف أبحث عن عمل، أو ربما أعود للدراسة».

حاولت أن أخفي توتري عن أطفالي، وبعد مدة قصيرة كان علي أن أرجعهم للمنزل، وأساعدهم على حزم حقائبهم ليعودوا إلى السعودية مع أبيهم، كان عمر عبدالرحمن عامين فقط في ذلك الحين، لذلك كنت أتساءل إن كان سيتذكرني، عندما يأتون لزيارتي في الصيف المقبل؟

وعند الساعة ١:٠٠ مساء حمل حمزة حقائبهم الصغيرة إلى سيارة الأجرة التي كانت تنتظرهم، كانوا سيذهبون لإمضاء الليلة في فندق، ثم يغادرون إلى السعودية بالسيارة في الصباح الباكر، عانقت أطفالي، وحاولت جهدي أن أبتسم لهم.

«سوف تبقون جميعكم مع بعض، وليس عليكم أن تعيشوا منفصلين بعد الآن!».

سألتني روان: «ألن تذهبي معنا يا ماما؟».

«لا، يا حبيبتي».

«أين ستبقين إذن؟».

«سأبقى هنا في هذا المنزل أنتظر عودتكم اعتنوا ببعضكم، وكونوا عاقلين، ولا تشدوا شعر بعضكم. ساعدا أختيكما الصغيرتين يا يوسف وأنس، على أداء واجباتهما المدرسية، عداني بذلك».

مشى الأطفال على الرصيف باستثناء عبدالرحمن الذي حمله والده بين ذراعيه، وقبل أن يدخلوا سيارة الأجرة استدارت سارة، وركضت عائدة نحوي.

«ماما، أريدك أن تحتفظي بقرطيّ. تستطيعين ارتداءهما إن أردت».

رأت روان أختها، وأسرعت نحوي لتعطيني قرطيها الأخضرين الصغيرين».

شكرتهما، وعانقتهما مرة أخيرة، وأخبرتهما بأن تغلقا الباب بعد أن أدخل المنزل، فلم أستطع تحمل رؤية سيارة الأجرة تبتعد وأطفالي فيها، وبعد أن رحلوا رجعت إلى الباب، وأقفلته، ثم اتكأت على الباب، ونزلت نحو الأرض؛ لأن ركبتيّ لم تتحملا الوقوف. أغلقت عينيّ، وبكيت، دموعي منهمرة كالشلال.

بعـد دقائق عدة سـمعت جرس الباب الخلفي يرنّ، لم أرغب فـي رؤية أحد؛ لذلك بقيت سـاكنة ومسـتلقية على أرضية المطبخ الباردة، ثم سـمعت طرقًا على الباب، انتظرت الطارق حتى يذهب بعيدًا.

«ماما، إنه أنا».

فتحت الباب، ووجدت أنس يقف على العتبة أشحت برأسي؛ حتى لا أظهر أني كنت أبكي.

«ماما، لقد نسيت قبعتي، هل تبكين؟».

«لا، أنا لا أبكي. لا تقلق».

ركض نحو الغرفة الخلفية، وأحضر قبعته، ثم أمسكها بتأمل لحظة، وقال:

«أتعرفين يا أمي، أعتقد أن عليك الاحتفاظ بها، فنحن سنعود».

عانقت أنس، ثم غادر مرة أخرى، أقفلت الباب، ورجعت لترتيب غرف نوم الأولاد، رتبت أسـرّة الأطفال، ووضـعت دمى الدب فوق البطانيـات، كما لو أن الأطفـال يلعبون في الخارج، وسـيعودون قريبًا. وبعد ذلـك ذهبت إلى بقية أنحاء المنزل أشـغل نفسـي بالأعمال المنزلية الصغيرة، وعندما حل الليل أخيرًا أطفأت جميع أضواء المنزل، وجلست على الأرض.

سـمعت الجرس يرن مرة أخرى، لكني تجاهلته، ثم رن هاتفي، ورأيت اسـم يوسف على شاشة الهاتف.

«يوسف؟».

«أنا عند الباب الأمامي يا أمي، تعالي، وافتحيه».

ذهبـت، وأدخلت يوسـف، الذي أشـعل الأنوار والتلفـاز، ثم أخرج زجاجة صـودا وبعض الأطعمة الخفيفة من حقيبة ظهره.

«لماذا تجلسين وحدك في العتمة يا أمي؟».

تجاهلت سؤاله.

«هل أتيت إلى هنا وحدك يا يوسف؟».

«نعم. لقد نام أبي، وأخذتنا الخالة غادة لنتمشـى، انتظرت حتى سبقني الآخرون قليلًا، ثم مشيت عائدًا إلى هنا، هل تريدين شيئًا لتأكليه؟».

operkapal.com

رن هاتفه، فردّ، قائلًا:

«أنس، ماذا تريد؟».

«أين ذهبت؟ الجميع يبحث عنك».

«أتيت لرؤية أمي».

«لماذا لم تخبرني؟ أريد أن أرى أمي أنا أيضًا».

«لا تخبر أحدًا سوف أرجع بعد بضع دقائق».

حاول يوسف أن يقنعني أن آكل بعض رقاقات البطاطس التي أحضرها معه، لكني أخبرته بأنني لست جائعة، ثم عانقته، وودعته مرة أخرى.

وفي اليوم المقبل اتصل بي الأطفال كلهم من هاتف يوسف، وودعوني ثانية، ثم غادروا إلى السعودية، وبقيت وحدي، شاهدت الشمس ذات اللون الأحمر البرتقالي تشرق فوق كثير من المنازل في عمّان. كان الأطفال لا يزالون ينامون بأمان في منازل أمهاتهم. سيكون هذا اليوم عاديًّا بالنسبة إليهم.

وهكذا رحل جميع أبنائي عني، وبقيت وحيدة

دقات قلبي تتسارع دون انتظام

دموع آلام تجري على خدي وتحرقني

وابتلت جروحي من دموعي

وضاعت أحلامي وسقطت أوراقي بين الأحزان

أبكي من كل قلبي

أصبحت جزيرة من دموع.. وجع... فراق.. ألم.. ذكريات.. هموم.. حرمان.. عذاب..

تمنيت أن أجد أحدًا يمسحها، ويحضنني.

عند نهاية شهر آب من عام ٢٠٠٢م لم أعرف ما علي فعله، لكني شعرت بأني سأسير على غير هدى بقية حياتي.

obeikandi.com